١١

فى المدينة المنورة

أسفـــــاره

وصلنا مع ابن بطوطة إلى المدينة المنورة ، وكنا نتوقع أن نشعر فى كلامه بفرحة قريبة من فرحة ابن جبير عندما أهلَّ على مدينة الرسول ﷺ ، فإن ابن بطوطة ذكر فى فاتحة رحلته أن المقصد الرئيسى من رحلته كلها هو زيارة الأراضى المقدسة ، ولكن لأمرٍ ما نشعر بشىء من الفتور فى كلام ابن بطوطة عن المدينة المنورة ، وقد يكون هذا هو مزاج ابن بطوطة نفسه ؛ أى أنه بطبعه رجل هادئ النفس قليل الانفعال مقتصد فى الاسترسال مع عواطفه ، وهذا صحيح ؛ فإن ابن بطوطة كان كذلك ، وكلامه يصدر دائماً عن هدوء وبعيد عن الانفعال أيًّا كانت المناسبة التى يجد نفسه فيها .

ولكن الذى يستوقف النظر أن كلامه عن المدينة المنورة منقول فى غالبيته عن ابن جبير وعن « وفاء الوفاء » للسمهودى ، ولا نشعر إلا فى النادر أنه يصدر فى كلامه عن إحساس مباشر أو تجربة شخصية ؛ كما هو عهدنا به فى معظم أجزاء رحلته .

المسجد النبوى

فبعد تحية بلاغية للمدينة ومسجد الرسول الأكرم ﷺ ينصرف ابن بطوطة إلى وصف المسجد النبوى وذكر شىء من تاريخه ، والكلام هنا لا يقدم إلينا جديداً ؛ لأن لدينا ما هو أفضل وأدق من ذلك فى كلام السمهودى ، بل إن ابن جبير يقدم لنا معلومات مباشرة ذات أهمية تاريخية

خاصة ؛ لأنها تصور لنا المدينة المنورة والمسجد النبوى فى الوقت الذى زارهما فيه ، ويبدو أن ابن جُزَىّ أطلق ليده العنان فى تعديل كلام ابن بطوطة هنا كيف شاء .

ومن أهم المعلومات المباشرة التى يقدمها كلامه عن دار الوضوء التى أمر الملك المنصور قلاوون ببنائها عند باب السلام من أبواب المسجد المكرَّم ، وهى دار وضوء كبيرة المساحة يصورها لنا ابن بطوطة تصويراً دقيقاً ؛ فقد كانت - بحسب كلامه - ميضأة مستديرة واسعة المساحة ينصبُّ فيها الماء من صنابير تدور مع الميضأة ، ويجلس المتوضئون القرفصاء أمام الصنابير .

وتدور حول هذه الميضأة دورات المياه ، وهو يسمِّيها « البيوت » . وكان الذى أشرف على بنائها الأمير الصالح علاء الدين الأقمر . وهو يضيف أن الملك المنصور قلاوون أراد أن ينشئ ميضأة كهذه فى مكة ، فلم يتم له ذلك ، وأقام ميضأة مكة ابنه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، أقامها بين الصفا والمروة.

وبعد كلامه عن الميضأة يقول شيئاً يبدو أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى قوله؛ لأنه بدهىٌّ، وهو أن قبلة مسجد الرسول ﷺ قبلةُ قَطْعٍ، أى : مقطوع بصحة اتجاهها نحو الكعبة ، لأن الذى حدَّد موضعها كان رسول الله بنفسه، ويذهب إلى أن جبريل - فيما يقال - هو الذى حدَّد موضعها .

ولكن هذه الملاحظة تأذن لنا فى أن نضيف حقيقة مهمة ، وهى أن الخلاف كثير حول صحة اتجاه الكثير من قِبلات المساجد فى العصور الوسطى ، لأن الأساليب الرياضية أو الفلكية التى كانوا يعتمدون عليها فى تحديد اتجاه القِبلات لم تكن تمتاز بدقة علمية حاسمة .

وفى الغالب كانت تُـحدَّد القِبلات على وجه التقريب، بل هناك مسجد

عظيم - وهو مسجد قرطبة الجامع - تبيَّن بعد بناء الجزء الأول منه أن اتجاه قبلته نحو الجنوب ، لا نحو الجنوب الشرقيّ كما كان ينبغى . وعندما تبيَّن الناس ذلك فكروا فى هدم المسجد وإعادة بنائه على الصحة ، ولكن الفقهاء أفتوا بإبقاء المسجد وقبلته على حالها ، وأشاروا بأن ينحرف المصلُّون بعض الشىء فى اتجاه القبلة الصحيح.

وهنا لا بد أن نشير إلى أن أدق مَنْ عرف توجيه القِبلات فى تاريخنا هو أبو الريحان البِيرونى، وفى بعض فصول كتابه المشهور « الآثار الباقية عن القرون الخالية » كلام علمى دقيق جدًّا عن أحسن الأساليب لحساب اتجاه القِبلات ، والكلام مدعوم بالرسوم والحسابات الهندسية الدقيقة . وقد اشترك البِيرونى فى تحديد قِبلات الكثير من المساجد التى بُنيت فى عصر الغزنويين .

و يحدثنا ابن بطوطة عن إمام المسجد وخطيبه فى أيامه ، وهما مصريان ، ويذكر أن الأخير منهما - وهو سراج الدين عمر المصرى - خطب فى المسجد أربعين سنة ، فلمَّا عَلَتْ به السِّنُّ وأحس بدنوِّ منيته تاقت نفسه إلى ختام أيامه فى بلده مصر ، فنوى العودة ، ولكنه رأى الرسول ﷺ فى المنام ثلاث مرات ينهاه عن مبارحة المدينة ، ولكن حنينه إلى بلده غلبه فخرج ، قال ابن بطوطة : « فمات بموضع يقال له (سُويس) على مسافة ثلاث مراحل من مصر قبل أن يصل إليها ! نعوذ بالله من سوء الخاتمة » (ص١١٥) ، والمراد بمصر هنا هى الفسطاط ، وإلا فإن سويس من مصر .

ولا يحدثنا ابن بطوطة عما شهد ومَنْ لقى من الناس فى المدينة ؛ كما فعل ابن جبير ، بل يصرف جهده إلى الحديث عن مؤذنى المسجد الشريف وخُدَّامه ، وهو يقول إنهم فتيان من الأحابيش ، ولا ندرى ماذا أراد بقوله هذا ؟ هل هم من الأحباش ؟ أم من أبناء القبائل التى عُرفت أيام الرسول ﷺ بالأحابيش ، وهى قبائل عربية سمِّيت بالأحابيش لأنها تَحَبَّشَتْ أى :

تجمَّع بعضها إلى بعض؟ ولكنه يضيف : « إنهم على هيئاتٍ حِسَانٍ وصورٍ نظافٍ وملابسَ ظرافٍ ، وكبيرهم يُعرف بشيخ الخُدَّام ، وهو فى هيئة الأمراء الكبار ، ولهم المرتَّبات بديار مصر والشام ، ويُؤتَى إليهم بها فى كل سنة » .

ثم يعقب ذلك حكاية مؤذن من مؤذنى المسجد أصله غرناطىّ كان خديماً لشيخ يسمَّى عبد الحميد العجمى ، وكان الشيخ يأتمنه على أهله وحرمه ، فحدث أن امرأة الشيخ حاولت فتنة الخديم الغرناطىّ ، فما كان من هذا الرجل الحريص إلا أن جَبَّ نفسه لينجو من الفتنة ، وقد عولج من ذلك وشُفى وعاش بعد ذلك آمناً على نفسه !

وحديث ابن بطوطة عن المجاورين فى المسجد طريف ؛ فقد كان الكثيرون ينقطعون للمجاورة فى المسجد الشريف ، ويقضون عمرهم كله هناك ، ومنهم من كانوا يجاورون بمكة المكرمة عند الحرم ، وكانوا لاينقطعون عن الطواف بالكعبة صيفاً ولا شتاء ، وكان بعضهم يتعمَّد الطواف فى أشد أيام الحر وساعة القيلولة التماساً للثواب عملاً بالحديث الشريف : « الثواب على قدر المشقة » . قال : «وأكثر الطائفين فى ذلك الوقت يلبسون الجوارب ، وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافى القدمين ورأيته يوماً يطوف ، فأحببت أن أطوف معه ، فوصلت المطاف ، وأردت استلام الحجر الأسود ، فلحقنى لهبُ تلك الحجارة ، وأردت الرجوع بعد تقبيل الحجر ، فما وصلته إلا بعد جهد عظيم ، ورجعت فلم أَطُفْ ، وكنت أجعل بِجَادِى على الأرض وأمشى عليه ، حتى بلغت الرواق » (ص ١١٧) . ويذكر أنه كان بمكة إذ ذاك وزير غرناطىّ سابق يسمَّى أبا القاسم محمد بن الفقيه أبى الحسن سهل بن مالك الأزدى ، «كان يطوف كل يوم سبعين أسبوعاً[1]، وكان يطوف فى وقت القائلة لشدة الحر،

(١) أى : يطوف حول الكعبة كل يوم سبعين طوافاً ، كل طواف سبع دورات .

وكان ابن مرزوق يطوف فى شدة القائلة زيادةً عليه » .

وبقية حديث ابن بطوطة عن المدينة لا يتضمن أى شىء جديد . فهو يحدثنا بما ذكره المؤرخون من أمر أمير المدينة فى أيام زيارته سنة ٧٢٨هـ وهو كُبيش بن منصور بن جَماز وما جرى بينه وبين عمه مقبل من العداوة والقتل ، ثم يتحدث عن بعض المشاهد حديثاً منقولاً عن السمهودى وغيره ممن زار المدينة دون أن يضيف شيئاً يدل على معاناة شخصية . ويختم حديثه عن المدينة بحكاية لا بأس بروايتها هنا ، قال :

« وكان هناك فقيه طيِّب من أهل غرناطة، ومولده ببجاية ، يُعرف هناك بجمال الدين المغربىّ ، فصحبه رجل يسمَّى على بن حجر وواعده على أن يزوجه بنته ، وأنزله بدويرة خارج داره ، واشترى جارية وغلاماً ، وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ، ولا يطمئن بها لأحد ، فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب ، وأخذاه وهربا . فلما أتى الدار لم يجد لهما أثراً ولا للذهب ، فامتنع من الطعام والشراب ، واشتدَّ به المرض أسفاً على ما جرى عليه ، فعرضت قضيته بين يدى الملك ، فأمرَ أن يُحْلَفَ له ذلك ، فبعث إليه من يُعْلمه ذلك ، فوجده قد مات - رحمه الله تعالى - » (ص ١٢٢).

وحديث ابن بطوطة كله عن المدينة المنورة من هذا الطراز ؛ أى أن الرجل يستوقف انتباهنا باهتمامه بالناس وشئونهم وما كانوا يفعلون ، وكيف كانوا يتصرفون ، دون نظر إلى تحقيقات بعيدة فى موضوعات معمارية أو تاريخية أو فكرية؛ لأن ابن بطوطة رجل بسيط يعيش مع الناس ويشاركهم فى أسلوب حياتهم وتفكيرهم ، ويتحدث معهم بلغتهم ، ويهمه ما يأكلون وما يشربون وما يجرى عليهم من الأحداث .

ولهذا فإن كلامه هنا وفى مواضع أخرى من كتابه أشبه بالمذكرات الشخصية الحافلة بكل ما يعرِّفنا بأحوال الناس ، وذلك هو موضع الأهمية فى كلام ذلك الرجل الذى عرف كيف يجعل من رحلته صوراً متوالية من

حياة الناس ، وهو الأمر الذى يهمنا فى المقام الأول ؟ لأن كتب الرحَّالة الآخرين تقدِّم لنا فيضاً من المعلومات ذات المستوى العلمى الخالص ، فى حين أننا فقراء جدًّا فى المادة الإنسانية البسيطة التى تعطينا شكل الحياة وطعم الحياة فى العصر الذى قام فيه ابن بطوطة برحلته تلك .

ولعلَّنا لاحظنا ذلك فيما مرَّ من الحكايات القصيرة التى يحكيها ابن بطوطة عن بعض مَنْ لقى من الناس وما حدث لهم ، وكذلك فى حديثه عن الأطعمة والأشربة والأكسية والفُرُش وكل ما يهم الناس فى حياتهم كل يوم . وهنا تعتبر رحلة ابن بطوطة - بحقٍّ - وثيقة اجتماعية فريدة فى ذلك .

* * *